رنده حيدر

القصة الفلسطينية الجديدة عبر تيارين

دراسة مقارنة لمجموعتي نواف أبو الهيجا وعلي زين العابدين الحسيني

يشغل الفن القصصي اليوم دورا اساسيا وبارزا في الادب العربي ،شاركا الفنون الادبية الاخرى في البحث عن خلاص جديد للشخصية العربية يكمن فيه ميلادها من جديد ، وذلك عبر رؤية متجذرة لمشكلات المجتمع وآفاقه الحقيقية في محاولة للكشف عن افاق مستقبل جديد .

ويشكل النتاج القصصي الفلسطيني شريحة تعكس خصوصيات هذا النتاج من حيث المضمون والتقنية الفنية ، هذه التقنية التي توزعها تياران ،تيار قاده الرمز والبحث عن الصورة المطلقة الىالوقوع في الشكلية ، واخر استطاع ان ينهض بالكلمة الموحية الشعرية الى مجالات الرؤى الحلمية المشبعة بالايحاء ، مفجرا الواقع الثوري،طارحا تطلعات لغد اكثر اشراقا .

تمثل مجموعة نواف ابو الهيجا القصصية « الضرب في الراس » مثالا على التيار الاول ، بينما تشكل مجموعة « خميس يموت اولا » لعلي زين العابدين الحسيني مثالا على التيار الثاني .

وقراءة لمجموعة « الضرب في الراس » تجعلنا نصنف اقاصيصها ضمن ثلاثة محاور رئيسية ، ان من حيث المضمون ، او من حيث التناول الفني له .

المحور الاول : رؤيا حادة لواقع الحضارة العربي في محاولة للكشف عن زيف الحياة العربية ونقائصها مع بعض الاشارات الخفية الرامزة الى تلك العلل التي تكمن وراء ذلك الزيف وتلك النقائص ، وذلك عبر الاقاصيص التالية :

« الشلل » : لوحة تشخيصية لمرض الانسان العربي الذي يورثه العجز والشلل ، هذا المرض الذي لن يبرأ الا بمساهمة من الذات على تخطيه . وتعمل اللوحات المتعاقبة على توضيح حقيقة العلة، وتتوضح الصورة شيئا فشيئا ، فالانحراف يبدأ منذ الصغر عن طريق الاساطير والخرافات التي تمتلىء بها الاذهان ، وتتطور الصورة فيبرز الكبت الجنسي كعامل جديد من عوامل التخلف والتأخر ، ويتبلور المرض ، اجتماعيا في فوضى مسائل الزواج والطلاق ، ويزداد المرض تعقيدا مع بروز مشكلة الثقافة ، فالمؤسسات التربوية تلعب دورا مضادا لميول الطلاب ، وتفضح الممارسة الحياتية تناقض الواقع وتذبذبه ، مؤكدة مرة اخرى على ضرورة الموقف الايديولوجي ، وعلى تلاحم الموقفالطبقي والموقف القومي ، غير ان نهاية المشهد تبرز ، بشكل حاد ، غياب الوعي الثوري الحقيقي القائد نحو الالتزام ، فاضحا تحكم الكبت والعجز في الانسان العربي ، مما يورثه حالة من العجز المرضية .

وتتميز هذه الاقصوصة بعمق الرؤيا وشمولها ، ولا يعوزها الربط ، والتعقيد الظاهري لا يلبث ان يضمحل مع تواتر المشاهد التي تضيء الخط العام للرؤية الفنية .

وتحمل اقصوصة « رسائل مجنون الى البحر » فرار الانسان من اتون المدينة العمياء الظالمة الجاحدة ، الى عالم البحر الذي قد يحمل شيئا من الطمانينة والسلام لذلك الوجود الانساني المعذب ، غير ان قانون الاقوياء هو الذي يتحكم ايضا بعالم البحر ، فالسقوط هنا يأخذ طابعا اكثر مأساوية . والاقصوصة بمجملها رؤية عبثية للوجود، وهي تطرح الجنون كمخرج لمازق الوجود الانساني . لكن الجنون في الاقصوصة ليس فرارا فرديا من مواجهة الفساد وانما تحمل الرسالة الاخيرة ، صورة من الرفض والتمرد الجماعي حيث يشارك « البائعون الصغار ، والطلبة الصغار ، والشحاذون ، وارباب الاعمال الحقيرة ـ الزبال والكناس ـ .. الخ » هؤلاء جميعا يشاركون المجانين مسيرة الرفض في سبيل عالم اكثر عدلا واحقاقا للكرامة الانسانية .

والاقصوصة بمجملها تحمل طرحا جديدا لمعطيات الواقع في محاولة يائسة لتفجير الموقف الثوري المرتقب .

اما اقصوصة « شخصية تراجيديه » فهي رؤية جديدة مرضية للنفس العربية من داخل واقع الهزيمة ، وتدل على تفتت الذات وتآكلها وضياعها بين ماضيها الذي ليس سوى صور متعددة لانواع الكبت ، وبين حاضر مهزوم ، ونفس تحاول ان تخرج من منفاها وعجزها، وتعمد من جديد الى تحقيق ذاتها ، ولكنها في النهاية تفشل .

نأخذ على هذه الاقصوصة تأكيدها الاحساس بالمرتقب ، فالاشياء تبدو مربوطة بحتمية صارمة ، والمرض يبدو مستعصيا فلا امل في النجاة ، وهذا نتيجة انعكاس حاد لما خلفته الهزيمة من يأس في النفوس .

اما اقصوصة « الجبل » فهي اعادة طرح جديد لغربة الانسان ووحدته في عالم المدينة ، انها صورة اخرى لضياع الذات ولبحثها عن هوية ، قبل ان يبتلعها جبل الخوف والرعب ، وتصبح فردا من قطيع الرهبة . ان الخاتمة لا تأتي بنتيجة ، فهي ابتلاع اخر ، موت جديد للتحدي ، لتبقى الوحدة والعزلة والخوف .

واقصوصة « من سيد الجيرك الجديد ايها الملك السعيد . » مزج للحكايا الشعبية ، ولصور الحياة الصاخبة ، ولاقوال اذاعية متفرقة عن قضية الشرق الاوسط وفييتنام ، كل ذلك في اطار من التداعيات غير المترابطة ، والاقصوصة بمجملها تفتقد وحدة السياق وغائيته ،

فهي تحمل انتقالا انتقائيا من موضوع الى اخر مما يضعف من القيمة المعنوية والاسلوبية للاقصوصة في آن معا .

هذه الاقاصيص تكشف ميل الكاتب الى الاغراق في التعقيد والبحث عن الصورة السريالية التي تتخطى المالوف والتي جاءت في معظمها على حساب المغزى ، وحدت من التاثير المرجو بسبب تخليها عن المعنى في سبيل الاسلوب . غير ان هذا ليس حكما مطلقا ، فلقد نجحت للكاتب بعض هذه الاقاصيص لتلازم مغزاها واسلوبها ،

اما المحوران الاخران فهما يشكلان رافدين لتيار واحد، فالموضوع المطروق هو قضية الاغتصاب والارض والنضال ، لكن تناول الكاتب لهذه الموضوعات تواتر ما بين الشكل الروائي المعقد المعتمد على التداعيات والرؤى الحلمية المتشابكة وعلى تقاطع صور الواقع وتيار اللاوعي ، وما بين السرد الروائي الذي يعتمد على بناء الحدث وتناميه حتى نقطة الذروة .

يلعب الرمز في النوع الاول من الاقاصيص دورا جوهريا ، ففي « بنادق » غوص جديد في حنايا المأساة منذ الاغتصاب حتى الفداء . تمثل « سكينة » الارض ، اما « سعد » فيمثل الثورة التي تحارب ببندقية قديمة : وفي هذا اشارة الى ظروف القهر والضغط التي تحيط بالثوار اما تاجر البنادق الجديدة فاشارة اخرى الى تلك الفئات المستغلة التي تعمل بدناءتها على اجهاض الثورة وتساوم على الارض، وهذا ما نلمسه في حوار التاجر مع « سكينه » . وتختلط في الخاتمة صورة استشهاد « سعد » برؤى مضيئة للمستقبل تلتمع ثم تغيب من جديد في طيات الكآبة المسيطرة على هذه المرحلة التي تعيشها الارض، والتي ما زالت مرحلة انتظار ، انتظار التحرير الشامل .

يرتفع الكاتب في اقصوصته هذه الى ذروة الاداء ، فيخطو خطوة ثابتة على طريق البناء الدرامي الجيد .

اما اقصوصة « اسير العالم المقلوب » فهي تعكس صورة ذهاب الارض عن طريق غريب ، وشخصية الغريب هنا تتكرر في اكثر من اقصوصة ، وفي ذلك تركيز على مغزى الوجود الدخيل الذي يمارس عملية الاقتلاع بحق الشعب الآمن ، هذا الغريب يدخل مجتمع القرية الساذج ، فيستحوذ على العطف والحماية وينتهي به الامر الى الاستيطان مع اهله وعشيرته في الارض بعد استئصال سكانها الاصليين، كل ذلك عبر مشاهد تروى برواية ، وهذا مما يعمل على تقريب الصورة من الاذهان ، وجعلها نوعا من الانبثاق الطبيعي البعيد عن الانفعال ، وهذه الطبيعة تتبلور في الخاتمة التي تنزع الى الحكمة الشعبية .

وتمثل اقصوصة « طقوس انفعالية » لوحة صادقة عن مشاعر الغربة والحنين الى الارض التي يعيشها كل من خاض تجربة الاقتلاع والتشرد والضياع ، انها افتقاد هوية يتمثل في الاقصوصة في ذلك البحث عن الام (الارض) التي تتنكر لولدها لانها فارقته منذ زمن طويل ، فلقد محا الاغتصاب معالم وجهه . والاقصوصة بذلك كابوس مرعب ، وحنين قاتل الى حضن الام ، وبحث محرق عن الحنان والدفء من جديد . لكن اللقيا لن تتحقق الا من خلال القتال واستمرار النضال .

وتمثل اقصوصة « الولد الفلسطيني » رؤية جديدة لمأساة فلسطين من منظار طفل عاش فصولها ، وتتميز هذه الاقصوصة بتلك الدهشة الطفولية ، والنزوع الرومانسي الشاعري ، بالاضافة الى ما تحويه من صور لحياة الاقتلاع والمقاومة .

يطبع هذا النوع من الاقاصيص بشكل عام ، ذلك الصدق في نقل المشاعر وتصوير المأساة ، يسيء اليه احيانا استرسال الكاتب وراء اصطياد الغريب من الصور ، وافتعال التعقيد .

اما بالنسبة لاقاصيص النوع الثاني ، فتبرز اقصوصتا « الرجل الفلسطيني » و « الضفتان » على غيرهما من المجموعة لتعكسا صفات الكاتب وخصوصيات فنه الروائي .

ترسم اقصوصة « الرجل الفلسطيني » صورة حية عن حياة النضال والمقاومة التي يخوضها الفلسطينيون ضد الغزاة المحتلين، كما بين كيف ان النضال فرق الاب عن اسرته ، فالتحق بصفوف المجاهدين، ليعود بعد سنين طويلة من الفراق الى بيته واسرته ، كل ذلك يتم صدفة ، وضمن سياق روائي يتدفق عاطفة وتاثرا ، محاولا رسم صورة مشرقة عن المستقبل ، فتجدد اللقيا يجدد الامل في امكان العودة والتحرير . ولقد املت طبيعة الموضوع جوا من الحساسية والعاطفة ، جعل اللغة تكتسي رداء من الشاعرية الموشحة بالايحاءات .

وتقفز اقصوصة « الضفتان » الى الصف الاول بين الاقاصيص جميعا ، لما تميزت به من جودة في القصد وقدرة على الاداء تصل في بعض الاحيان الى درجة الابداع . وهي نوع من الحوار الداخلي المتعدد الابعاد لشخصيات خمس هم : « ابو الليل » احد الفدائيين ، «عطوان» ملازم في الجيش ، « شهلا » حبيبة الفدائي ، « فطوم » زوجة الملازم، « النصب » الذي احتوى جثتي « ابو الليل » و « عطوان » ، وتمثل الاقصوصة وحدة المصير العربي ، فالموت هو الذي يوحد في النهاية بين الفدائي الذي قتل برصاص الجندي ، وما بين هذا الجندي نفسه، وهو الذي يصفي ما بينهما من احقاد مصطنعة املتها السلطات الفاسدة، فالدمار يلحق بالطرفين ولا مصلحة لاحد في هذا الاقتتال الا لبعض خونة الامة العربية . من هنا كانت المصالحة ما بين الاثنين بعد ان اكتشفا وحدة الرباط الذي يجمع ما بين العرب اجمعين . نتسمع على لسان النصب « اراهما يتأملان بعضهما بعضا .. ثم ... يتقدمان احدهما باتجاه الاخر .. يحتضن احدهما الاخر ... ويدخلان المثوى الاخير . » ص ١٩٣ .

اما بقية الاقاصيص فتتحمل كل منها معاناة اخرى للهزيمة والفداء:

تعكس « العالم الثالث » رؤيا الهزيمة من خلال ربط لموقف الانسان العربي منها وموقفه من جهة ثانية من المرأة ، وهو في مجمله موقف متذبذب ، عاجز ، فطابعا التردد والعجز اللذان طبعا هزيمة حزيران ، هما اللذان يتحكمان سلوك العربي باكمله .

اما اقصوصة « الاشياء الحية » فتحمل صورة نابضة عن حياة الفداء ومجموعة المقاومين ، فهي توغل في صدور هؤلاء الذين وهبوا انفسهم للارض ، في محاولة للكشف عن دوافع نفسهم الخفية التي تقودهم دوما الى المزيد من الفداء والتضحية ..

اما مجموعة « خميس يموت اولا » لعلي زين العابدين الحسيني، فهي تشكل مرحلة متقدمة في العمل الروائي الملتزم المبدع .

لقد اراد المؤلف ان يكتب عن تجربة الموت الكبرى في سبيل الوطن ، وذلك عندما قال في اهدائه : « الى كل الرفاق الذين عرفوا متى وكيف يكون الموت عظيما اهدي هذه المجموعة » . فجاءت كتابته تجسيدا مليئا بالنبض والايحاء ، والدفق الشعوري المطبوع بغزارة التجربة وغناها .

تأتي الاقصوصة الاولى « نبي بلا احزان » لتجسد مأساة الاغتصاب الكبرى التي تعرضت لها فلسطين من خلال حادثة اغتصاب زوجة البطل على ايدي جنود يهود على مرأى من عيني الزوج الذي لم يحرك ساكنا للدفاع عن شرفه ، فتحمل المرأة طفل الخطيئة ، ويدين الزوج المرأة ويدفعها تحت وطأة الذنب الى الانتحار احتراقا وفي هذا دليل جديد على الهزيمة والعجز . والاقصوصة في مجملها عرض لموقف بكائي تفجعي يفتقر الى الحس الثوري ليغرق في رؤى السقوط السوداوية ، واحاسيس الالم والعجز .

اما اقصوصة « هو » فتطرق موضوع الكيان الفلسطيني الضائع الذي فقد هويته بفقدانه ارضه . من هنا كان « هو » انسانا غريبا مقتلعا خارج مسيرة الزمان والمكان ، دلالته الوحيدة شجرة برتقال تمثل مؤشرا لامل مرتقب ، هذه الشجرة التي لا تحمل ثمارا الا عند عودتها من جديد الى التراب الذي اقتلعت منه ، فالخير لا ياتي الا

بالعودة الى الارض . و « البرتقالة » تحمل نبوءة الثورة المرتقبة التي يجب ان تتحقق باسرع وقت ممكن وقبل ان يزحف النمل الاصفر على المدينة من جديد فتتكرر المأساة .

والاقصوصة اعادة للمأساة في نغمية شاعرية مطبوعة بمشاعر التحسر والحنين .

وترسم الاقصوصة « الفتى الذي لم يقتلوه » لوحة مأساوية مروعة لعملية الذبح التي تعرضت لها الامة الفلسطينية ، فالمقاومة اجهضت في مهدها لان البندقية كانت بلا ذخيرة ، والمجزرة كانت حتى الاستئصال بحيث لم تترك وراءها سوى شاهد واحد ، كان عليه ان يطيع حتى يموت . وهنا تبرز مقدرة الكاتب على الغوص ضمن هذه الشخصية ليكشف عبر تداعيات صور الماضي وتقاطعها مع معطيات الحاضر، حقيقة عمليات التعذيب البشعة التي كان يمارسها الغزاة ضد الشعب الفلسطيني ، غير ان الخاتمة تحمل انتفاضة شرسة ضد قوى الوحشية والعدوان ، فالاسير يغرز اصابعه في عيني حارسه ويواجه الموت بشجاعة مؤذنا بولادة المقاومة الفعلية وروح النضال .

وتمتاز الاقصوصة « هذا الشتاء » بانها تشكل مرحلة متقدمة من مأساة الرعب التي عاشها ويعيشها الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة ، وتاريخ الاقصوصة يرجع الى ما بعد الهزيمة الاولى عام ١٩٤٨، فهي بذلك تجسيد للواقع الفلسطيني المشروخ الذي عانى الخيانة والقهر ، فالمجتمع غير واع ، والحقيقة ضائعة ، من هنا كان الخائن في نظر الناس هو القائد الحقيقي ، والفدائي هو الخائن ، اما الذي يعرف الحقيقة فهو مجنون في نظر الناس ، غير ان هذا كله لم يمنع من ظهور صور المقاومة الفردية ضد كل عوامل الفساد هذه .

اذا كانت الاقاصيص الآنفة الذكر اوردت صورا للمقاومة الفردية، فانها في « خميس يموت اولا » اضحت التحاما مصيريا بين الافراد ، بحيث يضحى للاستشهاد لذة من نوع جديد شبيهة بخلق من نوع اخر . كما نلمح في هذه الاقصوصة عطاء فريدا يرتفع بالمعنى والاداء الى درجات عليا من الجودة والابداع ، فتاريخها يعود الى زمن قريب (يناير ١٩٧٣) مما يجعلنا ندرك مقدار التقدم الذي استطاع ان يحرزه هذا الكاتب في فنه الروائي ، حيث رأيناه يسخر كل التقنيات واساليب التشكل الفني في خدمة فكرته ، انطلاقا من تيار التداعيات الى تقاطع صور الماضي والحاضر ، الى الديالوج الداخلي والمزج الوحي بين العالم الداخلي للشخصيات والعالم المحيط بحيث يغدو الكل جزءا من سمفونية مترابطة تشد القارىء منذ الكلمة الاولى حتى الاخيرة .

في « خميس يموت اولا » حتى اشجار البرتقال تشارك في النضال وتضحي كائنات ترفض وتقاوم . « كان يدرك ان الاشجار كالناس مخلوقات ، تحس ، وتسمع ، تبكي ، وتحب ، لكنها لا تخون ، الشجر لا يخون الشجر » ص٥٧. من هنا كان التحام البطل بما حوله : «ازداد التصاقه بالشجرة ، عندما سرى اليه الدفء . وبدا معها كتلة شجرية واحدة . »

حتى العشق الذي يجمع بين « خميس » و « سهيله » يتحول الى نوع من الجبهة المقاومة العنيدة التي لا يفتت من عضدها لا الضغط ولا الارهاب . وتذوب في العشق كل المخاوف ويتحد المصيران ، ليواجها بشجاعة الموت العظيم ، ومع تعاظم الخطر واقتراب الموت يتم اتحادهما في لحمة لا تعرف الانفصال « سرت في جسدها برودة السلاح، تأملته في وقفته المتعبة ، للمرة الاولى يداهمهما خطر واحد ، وودت ان يمتزجا تلك اللحظة معا ليصبحا كيانا لحميا واحدا . واجتاحها احساس عنيف بحب لا مثيل له لخميس » ص ٦٢ .

هذا الاتحاد ما بين الروحين يتجسد اعمق التجسد عند اصابة خميس . وودت « سهيله » : « لو انها بداخله لتشاركه الاحساس بالنزف وبعذوبة الموت معا » . عندما تتوحد الاشياء وتندثر الحدود يبدو الموت طعم اخر ، انه طريق اخر للقيا .

استطاع الكاتب ان يبلغ في المقطع الذي يرسم استشهاد البطلين ، وفترة ما قبل الاستشهاد ، حد الروعة المعجزة ، بحيث يضحي النقد هنا من باب الاشياء النافلة ، لما في اسلوب الكاتب من براعة في فن القص والوصف والاستقصاء عن طريق اللمح ، والايحاء، والغوص في اعماق النفس حتى ان فنه القصصي يصبح دفقا شعريا من النوع الذي يصعب تصنيفه .

ونستطيع ان نوجز الفوارق بين الكاتبين في النقاط التالية :

١) تتدرج اقاصيص الحسيني في خط من التنامي التصاعدي، بحيث نلمح تطورا بنيويا من اقصوصة الى اخرى ، بينما تأتي اقاصيص ابو الهيجا بشكل انفلاشي ، يفتقر الى ترابط في السياق ، مما يقلل من التأثير العام للمجموعة ككل .

٢) نجح ابو الهيجا في تصوير حالات الغربة والحنين والاقتلاع التي خلفتها المأساة ، لكنه لم يستطع تجسيد واقع الرفض الجديد بكل تشعباته ، بينما نجح الحسيني في نقل الرؤيا الثورية المقاومة المناضلة بكل غناها وتوثبها وحرارتها ، مما اضفى على مجموعته هذا الطابع الحي المتدفق .

٣) امتاز الحسيني على زميله بتلك القدرة على الاداء ، وتلك السلاسة والطواعية في تصوير اكثر المواقف تشابكا وغنى وتعقيدا ،كل ذلك ضمن اطار من القص يتعدى نطاق الاخبار ليصعد الى مجالات الخلق الشعري المكثف بالايحاءات ، فيبدو الرمز والصورة الشعرية انبثاقا طبيعيا ، يفرضه الحدث . من هنا نجاح « خميس يموت اولا » في ابداع فن قصصي ملتزم ، دون السقوط في متاهات التشكيل المعقد الذي لمسناه في مجموعة « الضرب في الرأس » .

بيروت

دار الاداب تقـــدم

سليمان فياض

فـــي

زمن الصمت والضباب

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا